المد والجزر

في تاريخ الإسلام

أبو الحسن علي الحسني الندوي

١٣٩١ هـ

١٩٧١ م

المدّ والجزر

في تاريخ الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد :

فإن السيد الأستاذ الكبير أبا الحسن علي الحسني النَّدْوي ــ حفظه الله تعالى ــ واحد من كبار كتاب المسلمين ومفكريهم في هذا الزمان ، وقد وهبه الله الفهم الكبير والنظر العميق والرأي السديد ، ووهبه أيضاً البيان المشرق والقلم المطاوع والعاطفة المتأججة ، واتجه بكل هذه المواهب يخدم الاسلام ، ويهيب بالمسلمين أن

يعودوا لدينهم ليرضوا ربهم ويستعيدوا مجدهم . وكتب في هذا المجال كثيراً من الكتب النافعة والمقالات القيمة، وكان أبرز ما كتب كتابه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ذلك الكتاب الذي كان من أنفع ما أخرج للناس في هذا الزمان من كتب ، والذي جعل همه فيه أن يرد إلى المسلمين إيمانهم بأنفسهم ورسالتهم التي حمّلهم الله إياها ، وثقتهم بماضيهم ، ورجاءهم في مستقبلهم .

وهذه الرسالة التي نقدمها للمسلمين « المد والجزر في تاريخ الاسلام » من الرسائل الصغيرة النافعة القيمة ، التي خطتها يراعة ذلك الكاتب المفضال والداعية الكبير. وهي رسالة تحدث فيها بإيجاز عن حال العرب قبل الاسلام وشهادة الناس بهم في ذلك الزمان، ثم بين التغير

الكبير الذي جرى لأمة العرب بعد أن حملت رسالة الاسلام ، وكيف أن هذه الأمة انطلقت تحمل رسالتها لأهل الأرض ، وتدعو الناس إليها ، وتحطم من بين ظهراني البشرية صروح الظلم والبغي ، ثم تحدث المؤلف عن اللغز المدهش الذي كان ولا يزال يحيِّر الباحثين . هذا اللغز هـــو ذلك الفتح الاسلامي الكبير السريع ، وإسقاط ممالك الظلم ونقل الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جَوْر الأديان إلى عدل الاسلام ، واستشهد بأقوال عدد من المؤرخين والباحثين ممن أبدَوا دهشتهم من ذلك ، وختم هذه النقطة من بحثه بنظرة تحليلية علمية في هذا اللغز ، مبيناً أن سره هو الايمان الذي أكرم الله به هذه الأمة والذي كان ولا يزال المنبع الحقيقي لقوتها ،

واستشهد هنا بأقوال عدد من عقلاء الناس ممن فطنوا لهذا السر في قوة العرب . وبعدها تحدث المؤلف بحسرة ومرارة عما جرى لهذه الأمة حين نسيت دينها ، وبيَّن أحوالها السيئة في القرون الأخيرة ، ووصف جيل المسلمين منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري فقال :

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين : متنور الذهن ولكن مظلم الروح ، أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين ، قليل الصبر والجَلَد ، ضعيف الإرادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله ، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية، وبجاه وعزة وهمية، ضعيف الثقة بنفسه وبأمته ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد إلى غيره : (وإذا رأيتَهم تُعجبكَ أجسامُهم ،

وإن يقولوا تسْمَعْ لقولهم ، كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يحسبون كل صيحة عليهم) .

وأظهر المؤلف الجليل كيف ظهر أثر هـذا الجيل السيء في أمتنا في شر مظهر له في فلسطين، التي كانت نكبتها فضيحة للأمة في هذا القرن الرابع عشر الهجري ، ثم ختم رسالته بهذه الخاتمة التي تعتبر تلخيصاً قوياً واضحاً لموضوعها وفكرتها والمقصود منها ، فقال : « لقد ثبت مما ذكرناه في هذه الرسالة ، ومما سردناه من الأمثلة والأخبار ، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر ــ وما حرب فلسطين منا ببعيد ــ أن المد والجزر في تاريخ الاسلام وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الايمان، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين، وأن منبع

قوة هذه الأمة في باطنها ، وهو القلب والروح ، فإذا عُمِّر القلب بالايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ،وتزكت الروح بتعاليم الدين والأخلاق الاسلامية ، وجاش الصدر بالحمية الدينية جَيَشان المرجل ، وأخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية وأعدوا للعدو ما استطاعوا ، وأدركوا ماعليه العالم من جَوْر وظلم ومن جهالة وسفاهة وضلال في الدين والدنيا، وعلموا أن الزمان قداستدار كهيئته يوم جاء الاسلام والعالم قد عاد جاهلياً كمابدأ ، فانعطفوا عليه ، ورأوا كأن العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم ، فسعوا به يطفئون النار التي عمت الدنيا ، ونسوا في سبيل ذلك لذاتهم ، وتكدر عيشهم ، وطار نومهم ، وجُنَّ جنونهم ، فعند ذلك يتحولون قوة

خارقة للعادة ، لا يغلبها العالم ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده ودوله ، ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم ، وكلمته العليا .

(ولقدْ سَبَقَتْ كلمتُنَا لعبادِنا المرسلينَ . إنَّهم لَهُمُ المنصورونَ . وإن جُنْدَنا لَهُمُ الغالبونَ)

(ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَون إن كنتم مؤمنين)

وختاماً : ندعو الله سبحانه ونرجوه أن ينفع بهذه الرسالة النفع العميم ، فيفهم المسلمون الحقيقة الكبرى التي تحدثتْ عنها ، ويؤمنون بها ويجعلون همهم تطبيقها وترجمتها إلى واقع عملي . وندعوه ونرجوه سبحانه أن

يثيب كاتبها أجزل الثواب، وأن يعلي مقامه في الدنيا والآخرة، إنه سميع قريب مجيب (*).

الناشر



(*) ملاحظة: رجعت قبل طباعة هذه الرسالة إلى المصادر التي ينقل منها المؤلف نصوصه فقابلتها عليها، وشرحت بعض الكلمات الغريبة، ووضعت للرسالة جميع العناوين التي يشاهدها القارىء الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

حَال العَرَب قبلَ الإسلام

كان العرب قبل الاسلام أمة كادت تكون منعزلة عن العالم ، قد فصلتها عن العالم المتمدن المعمور البحار من ثلاثة جوانب ، وصحراء من جانب ، وكانت من الانحطاط والانقسام والضِّعَة والخمول بمكان لا تطمع فيه حيناً من الدهر إلى غزو البلاد ، ولا تحلم بالانتصار على الدول المجاورة لها في المنام ، ولا تَحَدّث به يوماً من الأيام .

هذا ، ودولتا فارس والروم يومئذ سيدتا العالم ، وزعيمتا الشرق والغرب ، وقد أحاطت ممتلكاتهما بشبه جزيرة العرب ، إحاطة السِوَار بالمعصم ، وإنما زهد الفرس والرومان في فتح هذه الجزيرة لوعورتها ، وقلة خيراتها ومواردها، وما يكلفهم ذلك من رجال وأموال، هم في غنىً عن إنفاقها في هذه الصحراء المجدبة ، وفي هذه الأمة الفقيرة ، وإنما اكتفوا برقابتهم السياسية عليها ، وبإماراتهم التي أنشأوها على ثغور هذه الجزيرة الواسعة ولَهواتها[1] .

هكذا كانت هذه الأمة التي ما كانت لتمثل دوراً مدهشاً في تاريخ العالم عن قريب ، كانت أمة بدوية

(١) لهواتها : أطرافها البعيدة

موهوبة — ولكن مواهب ضائعة — لا يرفع الناس بأفرادها في العراق والشام ومصر رأساً ، إذا مرّوا بهم تجاراً أو ممتارين[1] ، ولا يحسبون لهم حساباً ، ولا يهمهم شأنهم إلا ما يهم أهل المدن شأن الأعراب المستغربين في اللباس ، والصورة واللسان ، ولا يذكرونهم — إذا ذكروهم — إلا بذلاقة لسانهم ، وفصاحة منطقهم ، وشجاعتهم ، وجودة خيلهم ووفائها ، إلى غير ذلك مما قد تعرفه الأمم المتمدنة عن الأمم البدوية .

آراء رجال ذلك العصر في العرب

وإذا أردت أن تعرف منزلة العرب عند أهل العالم، قبل الاسلام ، والنظرة التي كان ينظر إليهم بها جيرانهم

---

(١) الممتار : من يجلب الميرة وهي الطعام .

في الشرق والشمال[1] ، فاستعرض الآراء التي أبداها رجال ذلك العصر ، من أهل البصر والمعرفة ، ووافق عليها العرب أنفسهم وزادوا عليها . فمما حفظه لنا التاريخ من هذه الآراء ، ما قاله امبراطور الدولة الفارسية لسفراء المسلمين .

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي بعدما ساق حديث رُسل المسلمين في مجلس يزدجرد :

قال : « فتكلم يزدجرد فقال : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذاتِ بَيْن منكم ، قد كنا نوَكِّلُ بكم قرى الضواحي

(١) كان جيران العرب في الشرق الفرس ، وجيرانهم في الشمال الرومان .

ايكفونا كم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقووا لهم ؛ فإن كان عددكم كثر ، فلا يغرّنكم منا ، وإن كان الَجهد[1] دعاكم ، فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم » .

فقال المغيرة بن شعبة :

« أيها الملك ، إنك قد وصفتَنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ماذكرتَ من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجِعْلان ، والعقارب والحيّات ، ونرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس

---

(١) الجهد : المشقة والبلاء .

إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، وأن يبغي بعضنا على بعض . وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية ، كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك ، فبعث الله إلينا رجلاً ... إلخ[1] » .

وجاء في هذا الكتاب أيضاً :

« ... وقد بعث أمير الفرس ، يطلب رجلاً من المسلمين ليكلمه ، فذهب إليه المغيرة بن شعبة ، فذكر من عِظَم ما رأى عليه من لبسه ، ومجلسه ، وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب ، واستهانته بهم ، وأنهم كانوا أطول الناس جوعاً ، وأبعد الناس داراً ، وأقذر

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٤١ – ٤٢).

الناس قذراً ، وقال : ما يمنع هؤلاء الأساورة[1] حولي أن ينتظموكم[2] بالنشاب ، إلا تنجساً من جِيَفكم، فإن تذهبوا نُخَلِّ عنكم ، وإن تأبَوا نُزِرْكم مصارعكم . قال : فتشهَّدْتُ وحمدت الله وقلت : لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت حتى بعث الله رسوله ... إلخ[3] »

وفي هذا الكتاب أيضاً :

« وذكر الوليد بن مسلم : أن ماهان طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصَّفَّين ، فيجتمعا في مصلحة لهم ، فقال ماهان : إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد

(١) الإسوار والأسوار عند الفرس : القائد ، جمعه أساور وأساورة.

(٢) ينتظموكم : يَشُكُّوكم .

(٣) البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٠٩) .

والجوع ، فهلمّوا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير ، وكسوة وطعاماً ، وترجعون إلى بلادكم . فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها[1] » .

وهـــذا كله يدل على ما كان يساوي العرب عند الروم ، وعلى ما كان لهم من قيمة ومنزلة عندهم .

تغيُّر حال العرب بالإسلام

ولكن سرعان مـــا تغيرت الأحوال ، وانقلبت الحقائق ، وبطلت التجارب السابقة ، وتاه العقل ؛ إذ خرج هؤلاء الأعراب من صحرائهم ، يفتحون ، ويقهرون ، ويغلبون ، ويُخضعون . تدفق هذا السيل

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٠) .

من مـدينة الرسول ﷺ عـاصمة العرب الاسلامية ، لإحدى عشر سنة للهجرة النبوية، واثنين وثلاثين وست مائة لميلاد المسيح ، فغلب كلّ شيء اعترضه في الطريق، وطما[1] على السهل والجبل ، ولم تكن جيوش فـارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الألوف، الشاكّة السلاح[2] ، الشديدة البطش ، التي كانت الأرض تزلزل بها زلزالاً ، لم تكن هذه الجنود المجندة إلا حشائش في هذا التيار الجارف ، فـلم تعق سيره ، ولم تغير مجراه ، حتى فاض في مروج الشام، وفلسطين ، وسهول العراق وفـارس ، وربوع مصر والمغرب الأقصى ، وأودية

---

(١) طما : علا وغطّى .

(٢) الشّاكة السلاح : التامة السلاح أو الحادة السلاح .

هملايا ، سال هـــذا السيل القوي بالمدنيات العتيقة ، والحكومات المنظمة القوية ، والأمم العريقة في المجد والسلطان ، فأصبحت خـــبراً بعد عَيْنٍ : (فَجعلناهُمْ أحاديثَ ومزقناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)[1] .

خـــروج العرب من جزيرتهم فاحتكوا بالفرس والروم، وكان العرب يكرهون وجوههم[2] ويرهبون سطوتهم في ديارهم ، ولكن هانوا عليهم في هذه المرة ،

---

(١) الآية ١٩ من سورة سبأ .

(٢) قال الطبري : عندما أراد عمر فتـــح فارس تخوفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم ؟ وكان وجـــه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم ، وعزهم وقهرهم الأمم .
(تاريخ الطبري ج ٤ ص ٦١) .

فغزوهم في عقر دارهم ، ونزلوا لساحتهم ، فما لبثوا أن مزّقوا جموعهم شر ممزّق، وثلّوا عروشهم[1]، ووطأوا تيجان ملوكهم ، وفتحوا كنوزهم ، واقتسموا أموالهم وتراث ملوكهم، وسبوا ذراريهم ، ومزقوا رداء فخرهم وعظمتهم ، فلم يرقع أبداً ، وكسروا شوكتهم ، فلم تعد أبداً ، وهلك كسرى فلا كسرى بعده ، وهلك قيصر فلا قيصر بعده : (وَأَوْرَثْنا القومَ الذين كانوا يُستَضْعَفون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها التي باركنا فيها[2]) .

خرج هؤلاء العرب من جزيرتهم في ثياب صَفِيقة[3]

---

(١) ثلوا عروشهم : هدموها .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .

(٣) صفيقة : كثيفة النسيج .

مرقّعة ، ونعال وضيعة مخصوفة[1] ، يتقلدون سيوفاً بالية الأجفان[2]، رثة المحامل ، على خيل بعضها عارية الظهور ، متقطعة الغرز[3] ، قد بلغ بهم البعد عن المدنية إلى حد أنهم كانوا يحسبون الكافور ملحاً ، وربما استعمله بعضهم في العجين[4] .

---

(١) خصف النعل : خرزها وضم بعضها إلى بعض .

(٢) الجفن : غمد السيف أي بيته .

(٣) الغَرْز : ركاب من جلد يضع الرجل قدمه فيه ثم يمتطي دابته .

(٤) قال ابن كثير : كان المسلمون يجيئون بعض تلك الدور ، فيجدون البيت ملآنا إلى أعلاه من أواني الذهب والفضة ، ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً ، فيحسبونه ملحاً ، وربما استعمله بعضهم في العجين ، فوجدوه مراً حتى تبينوا أمره (البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٧) .

فما لبثوا أن ملكوا الدنيا ، وامتلكوا ناصية أمم بعيدة الشأو في المدنية ، انقلب رعاء الشاة والإبل ، رعاة لأرقى طوائف البشر في العلم والمدنية والنظام ، وصار هؤلاء أساتذتهم في العلوم والآداب، والأخلاق والتهذيب، وحقت كلمة الله :(ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرض ، وَنجْعَلَهمْ أَئِمَةً وَنَجْعَلهُمْ الوارثين[1]) .

اللغز الذي أدهش المؤرخين

هذه القوة القاهرة بعد ذلك الضعف المخزي ، وهذا النشاط الغريب بعد ذلك الخمود العجيب ، وهذا الانتباه

(١) الآية ٥ من سورة القصص .

المريع بعد ذلك السبات العميق، لغز من ألغاز التاريخ. وقد اتفقت كلمة المؤرخين على أن هذا الحادث أغرب ما وقع في التاريخ الإنساني، وإليك بعض ما قال المؤرخون الأوربيون :

قول المؤرخ « جبون »

يقول المؤرخ « جبون » : « بقوة واحدة ونجاح واحد، زحف العرب على خلفاء أغسطس (في الروم) واصطخر (في فارس)، وأصبحت الدولتان المتنافستان في ساعة واحدة فريسة لعدو، لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما. في عشر سنوات من أيام حكم عمر أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفاً من المدن والقلاع، خربوا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار،

وأنشأوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين • على رأس قرن من هجرة محمد - ﷺ - من مكة، امتد سلطان خلفائه من الهند إلى المحيط الاطلانطيكي، ورفرف علم الاسلام على أقطار مختلفة نائية كفارس وسورية ومصر وإفريقيا وإسبانيا[1] » .

قول المؤرخ الأمريكي « ستودارد »

ويقول « ستودارد الأميركي » في كتابه حاضر العالم الاسلامي : « كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذي دُوِّن في تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان ،

---

(١) انحطاط رومة وسقوطها المجلد الخامس ص ٤٧٤ — ٤٧٥ طبع أكسفورد .

وبلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود، حتى انتشر في نصف الأرض ممزقاً ممالك عالية الذُّرَى، مترامية الأطراف ، وهادماً أدياناً قديمة كرت عليها الحِقَبُ والأجيال ، ومغيِّراً ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراصّ الأركان ؛ هو عالم الاسلام .

كلما زدنا استقصاء ، باحثين في سر تقدم الاسلام وتعاليه زادنا ذلك العجب العجاب بَهْراً ، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ، ثم أنشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيّض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر ، وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخــذ في تأييده والذبّ عنه ، حتى رسخت أركانه

ومنعت جوانبه • بطل النصرانية « قسطنطين » والبوذية « أسوكا » والمزدكية « قباذ كسرو » كل منهم ملك جبار، أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والأيد ، إنما ليس الأمر كذلك في الاسلام ، الاسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية ، تجوب فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في الأرض مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات ،دون أن يكون من الأمم الأخرى عون يذكر ، ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصراً ميناً عجيباً ، إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من

« البرانس » حتى « هملايا » ومن صحارَى أواسط آسيا حتى صحارَى أواسط إفريقية[1] » .

قول المؤرخ « فيشر »

ويقول مؤرخ عصري « هـ. ا. ل. فيشر » في كتابه تاريخ أوروبا : « لم يكن هنالك في جزيرة العرب قبل الاسلام أثر لحكومة عربية ، أو جيش منتظم ، أو لطموح سياسي عام ، كان العرب شعراء خياليين ، محاربين ، وتجاراً ، لم يكونوا سياسيين ، إنهم لم يجدوا في دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم ، إنهم كانوا على نظام منحط من الشرك . بعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ج ١ تعريب الأستاذ عجاج نويهض مقدمة في نشوء الاسلام .

الحاملون لأنفسهم قوة عالمية عظيمة، إنهم فتحوا سورية ومصر ، ودوّخوا وقلبوا فارس ، ملكوا تركستان الغربية ، وجزءاً من بنجاب ، إنهم انتزعوا إفريقية من البيزنطيين والبربر ، وأسبانيا من القُوط ، هدّدوا فرنسا في الغرب ، والقسطنطينية في الشرق ، مخرت أساطيلهم المصنوعة في الإسكندرية وموانىء سوريا ، مياه البحر المتوسط، واكتسحت الجزائر اليونانية ، وتحدت القوة البحرية للامبراطورية البيزنطية ، لم يقاومهم إلا الفرس وبربر جبال الأطلس ، إنهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صعب في بداية القرن الثامن المسيحي أن يقف في وجههم واقف ، ويعرقل سيرهم في الفتح والاستيلاء ، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم ، بل أصبح حوضاً عثمانياً

لا سيطرة فيه لغير الترك ، ووجدت الدول النصرانية من أقصى أوربا إلى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي[1] » .

قول لمؤلف شيوعي

ويقول مؤلف شيوعي : « إن الانسان ليدهش إذا تأمل السرعة الغريبة التي تغلب بها طوائف صغيرة من الرَّحالين ، الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين في الزمن القديم ، لم يمض خمسون سنة على بعثة محمد - ﷺ - حتى غرز أتباعه علم الفتح على حدود الهند في جانب ، وعلى ساحل البحر الأطلانطيكي في جانب آخر ، إن خلفاء دمشق الأولين

(1) H. L. FISHER : « A. History Of Europ » p .p. 137 - 138 .

حكموا على امبراطورية ، لم تكن لتقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل ، وحتى نهاية القرن الأول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم .

كل نبي جاء بمعجزات آيةً لما يقول ، وبرهاناً على صدقه ، ولكن محمداً - ﷺ - هو أعظم الأنبياء وأجلهم ؛ إذ كان انتشار الاسلام أكبر آيات الأنبياء وأروعها إعجاباً وخرقاً للعادة ، إن امبراطورية أغسطس الرومية بعدما وسعها بطلها « تراجان » نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون ، ولكنها لا تساوي المملكة العربية التي أُسست في أقل من قرن ، إن امبراطورية الإسكندر لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة ، إن الامبراطورية الفارسية

قاومت الروم زهاء أَلف سنة ، ولكنها غلبت وسقطت أمام « سيف الله » في أقل من عشر سنوات[1] .

نظرة تحليليّة في هذا اللغز

والآن نتظر في هذا الحادث الغريب نظراً علمياً تحليلياً ، ونبحث عن أَسبابه الحقيقية . الجنود والدول في هذا العالم المادي تغلب الجنود والدول في الغالب لوفرة عددها أو بزيادة عدتها وعتادها ، ولأنها أَحسن في الشِّكَّة والسلاح ، وفي التنظيمات العسكرية ، وفائقة في النظام الحربي ، فنتناول جميع هذه العلل المادية التي

(1) M. N. ROY : « Historical Role Of Islam » P,P 4 5, 6. 7.

يرجع إليها الفضل في انتصار الجيوش ، والدول عامة ، ونبحث فيها علة علة :

مسألة العدد

أما العدد فمعلوم أنه كانت النسبة بعيدة بين المقاتلين في العدد في جميع المواقف الحاسمة والمعارك الفاصلة في كفاح الاسلام والنصرانية والمجوسية ، وكان الروم والفرس أضعاف عدد المسلمين في أكثر الوقائع . هذه اليرموك كان الروم الذين نفروا لقتال المسلمين يبلغ عددهم مائة ألف وثمانين ألفاً ، وفي رواية مائتي ألف ، وفي رواية أربعين ومائتي ألف . وأقل ما روي عن عددهم عشرون ومائة ألف، وأكثر ما ذكر عن المسلمين أنهم كانوا أربعة وعشرين ألفاً . كذلك كانت النسبة

بعيدة في وقعة القادسية ، وهي أختها في العراق والنتيجة معلومة ، و « ما يوم حليمة بسرّ »[1] .

وقد اعترف بقلة المسلمين ووفرة جنود الروم والفرس المؤرخون جميعاً ، ولم يعللوا الفتح الاسلامي الغريب في التاريخ بكثرة عدد مقاتِلَة المسلمين . جاء في الفصل الرابع للأستاذين « غودفروا دمونبين » و « بلانونوف » :

«إن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم يكونوا عصائب لا تحصى ولا تعد ، تدفقت على الشرق المتمدن ، فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش

---

(١) يوم حليمة : هو يوم من أشهر أيام العرب في الجاهلية ، وهذا المثل يضرب في كل أمر مُتَعالَم مشهور .

الأول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل إليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تتام عددهم ٣٤ ألفاً ، وأما عدد الروم فقال العرب : إنه كان مائة ألف ، وقيل ٣٠ ألفاً ، وقيل ٣٠٠ ألف مقاتل ،ولم يزده مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفاً ، وعلى كل حال كان العدد الأكبر لأعداء العرب ، وهكذا في حروب فارس[1] » .

ومعلوم أن جزيرة العرب قليلة العمران بالنسبة إلى مساحتها واتساع رقعتها ، معظمها صحراء ، ورمال وعثاء ، وأرض قاحلة جرداء ، أما البلاد التي زحف

---

(١) حاضر العالم الاسلامي حواشي الأمير شكيب أرسلان (ج ١ ص ٣٩).

عليها المسلمون ورمَوا فيهـا بأنفسهم ، فهي من أخصب بلاد الله، مستبحرة العمران ، مكتظة بالسكان ، وكانت خليتها تعسل حيناً بعد حين، وتقطع بعوثاً إثر بعوث. وتتدفق سيول من الجيوش والمقاتلة ، وتأتيهم الميرة من كل مـكان لا تكاد تنتهي ، وكان العرب الغرباء كنقطة مغمورة في بحار من الأعداء ، نازحين عن بلادهم ، منقطعين عـــن مركزهم ، ولا يصلهم المدد إلا بشق الأنفس وبعـد شهور ، ولا يجدون من الميرة إلا مـا يتغلبون عليه وينتزعون مـن أيدي أعدائهم انتزاعاً ، فلو تطوعت جزيرة العرب كلها لقتال الروم والفرس ، ونفر جميع أهاليها للجهاد في سبيل الله ــ على أن ذلك من المستحيل ــ لمـا وقعوا من العالم النصراني والمجوسي ــ

وهما أكثر من نصف الأرض المعمورة ـــ بمكان ، فكيف والذين تطوعوا للجهاد ما كانوا نصف عشر عمران الجزيرة ؟!.

مسألة العتاد والسلاح

أما العُدَد والعتاد ، فكان العرب أفقر فيها ، وأقل منهم في العدد ، فلم تكن هناك جنود مرتزقة ، ولا جيوش منظمة تعبئّها الحكومة وتسلحها من عندها ، ثم تبعثها كاملة السلاح تامة الجهاز ، إنما كان متطوعون ، يجهزون أنفسهم وينفرون شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله ورجاء ثوابه ، ومنهم من لا يجد راحلة ويلتمس عند غيره فلا يجد ، فيقعد متلهفاً على ما يفوته من سعادة الجهاد في سبيل الله ، وقد أنزل الله فيهم : « ولا على

الذينَ إذا ما أتوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ : لا أجدُ ما أحملُكم عليه، تَوَلَّوا وأعيُنُهم تفيضُ من الدمعِ حَزَناً ألاّ يجدوا ما يُنفقونَ »[1].

وكان المسلمون تزدريهم أعين الروم والفرس لمّا خرجوا لقتالهم ، وكانوا يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون . قال أبو وائل ـ أحد الذين شهدوا القادسية ـ : كان الفرس يقولون للمسلمين : « لا يَدَ لكم ولا قوة ولا سلاح ، ما جاء بكم ؟! ارجعوا ، قال : قلنا : ما نحن براجعين ، فكانوا يضحكون من نَبْلِنا ، ويقولون : « دوك دوك » ويشبهونها بالمغازل[2].

---

(١) الآية ٩٢ من سورة التوبة .
(٢) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٤٠) .

قال ابن كثير : « وكـان سعد قد بعث طـائفةً من أصحابـــه إلى كسرى يدعونـه إلى الله قبل الوقعة ، فـاستأذنوا على كسرى فأذن لهم ، وخرج أهـل البلد ينظرون إلى أشكالهم ،وأرديتهم على عواتقهم ؛وسياطهم بأيديهم ، والنعـال في أرجلهم ، وخيولهم الضعيفة ، وخطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مـع كثرة عَددها وعُددها »[1] .

ويقول « مـاكس مايرهوف » في تأليفه « العالم الاسلامي » :

« يـكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف أن أعراباً

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٤١) .

منتمين إلى عشائـــــر ، ليست عندهم العُدد والأعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هـذا الوقت القصير جيوش الرومـان والفرس ، الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الأعداد والعتاد، وكانوا يقاتلونهم وهم كتائب منظمة[1]».

مسألة تفوق العرب في النظام الحربي

ومما قيل في تعليل غلبة المسلمين ، أن العرب كانوا فائقين في نظـامهم الحربي على الروم والفرس في ذلك العصر، وكانت كتائبهم أحسن تنظيماً وتدريباً، وأفضل نظاماً عسكرياً ، وأكثر انقياداً لأمرائها وقوادها من العساكر الرومية والفـارسية ، وأن الفضل في انتصار

---

(١) حاضر العالم الاسلامي حواشي الأمير شكيب أرسلان (ج ١ ص ٣٩) .

العرب مع قلتهم وانكسار الروم والفرس رغم كثرتهم، يرجع إلى مراس العرب للقتال وضراوتهم بالحروب، وولوعهم بالغزو والنهب، ونشأتهم الجاهلية الأولى النشأة الحربية المحضة.

هذا الكلام يشبه أن يكون وجيهاً وأكثر صواباً من التعليلات السابقة.

ولكنك إذا انتقدته كباحث ومؤرخ وجدته مغالطة كبيرة، يغالط بها الكتاب الأوربيون ويتعللون بها، وقد يفهمون وقد لا يفهمون.

وقد ثبت في تواريخ القرون الوسطى أن الروم — وكذا الفرس — كانوا راقين في نظامهم الحربي في ذلك العصر، وقد بلغت الدولة البزنطية في بداية القرن

السابع المسيحي زهوها ،وأوج فتوحاتها الحربية ، ففي ذلك العهد دحر الروم الفرس ، وردّوهم على أعقابهم ، وجاسوا خلال الديار ، وعبر هرقل جبال الكرد ونهر دجـــلة غازياً منتصراً ، وبعد حرب دامية في ساباط ومعركة فاصلة في نينوى ، دخل دستجرد وتقدم إلى المدائن ، وغرز عـــلم الفتح الرومي في قلب فارس ، وذلك كله في سنة ٦٢٥ م ؛ يعني قبل زحف المسلمين على الشام باثني عشرة سنة فقط .

وقد أفادت هذه الحروب الطاحنة التي بدأت من سنة ٦٠٣ الفريقين ـــ الروم وفارس ـــ من جهة الحرب والتدريب كثيراً ، وقد استفاد الفريقان أساليب جديدة للقتال وحنكة وحسن بلاء في الحرب ، وتعلمَّ كل فريق

من الآخر كما كـــان الشأن في الحروب الصليبية في القرون الوسطى .

وقد اعترف « جبون » مؤرخ رومة الكبير بفضل الروم على العرب في الحروب ونظامها ، فقد قـال في كتابه (المجلد الخامس ص ٤٧٨) :

أنا ألاحظ هنا وسأكرره مراراً ، أن هجوم العرب وقتالهم لم يكن مثل الرومان واليونان ، الذين كانت لهم رجالة قوية مستحكمة ، كانت القوة العسكرية للعرب مركبة من فرسان ورماة ، وكانت الحرب التي قـــد تقاطعها مبارزات شخصية ومناوشات من القتال ، قد تستمر وتطول بغير حادثة فاصلة إلى عدة أيام .

أما ما قيل من مراس العرب للقتال وتدربهم عليها،

بفضل حروبهم القبلية التي كـــادت تكون مستمرة ، وتمكنهم من الانتصار على الروم والفرس ، فلم تكن هذه المناوشات والغزوات الطائفية بحيث يتمكن بها العرب مـــن قهر الامبراطوريتين الكبيرتين الرومية والفارسية ، وقد خضع العرب مع هذا كله للحبشة ولفارس في جنوب العرب ، وانسحبوا أمام جيوش أبرهة في زحفه على مكة ، وأن الله هو الذي تولى بيته وكفى قريشاً القتال وجعل أصحاب الفيـــل كعصف مأكول، ولماذا لم يجسر العرب على الخروج من جزيرتهم وغزو البلاد وفتحها في هذه القرون الطويلة التي قضوها في شبه جزيرتهـم في خمود وخمول تام ؟ لماذا لم يهاجموا الروم والفرس كما فعلوا بعد بعثة محمد ﷺ بغير تراخ؟

ولماذا لبثوا الأحقاب والأجيال الطوال «معكومين على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم» كما يقول قتادة أحد التابعين الكبار[1].

أما ما قيل عن النظام فلا ننكر حسن نظام العرب في حروبهم وغزواتهم، وروح التعاون والتفادي، الساري في جنودهم، والطاعة والانقياد لأمراء الجيوش وقوادها، والتفاني والاستماتة في سبيل الله؛ ولكن يعلم الخبير أن النظام ليس شيئاً صناعياً ميكانيكياً، يحصل بمجرد تنظيمات عسكرية، وفنون حربية وقواعد رياضية، ولو صففت الحجارة تصفيفاً بديعاً، أو أقيمت العمد والسواري على نظام فني رياضي كامل لم تنفع

---

(١) تفسير ابن جرير (ج ٤ ص ٣٣) ومعكومين: مشدودين.

شيئاً ، وقد قرأت في التاريخ أن الروم والفرس قد كانوا في بعض المواقف الجليلة يسلسلون أنفسهم[1] ، ويحفرون لهم في الأرض لئلا يندحروا أو ينسحبوا من ميدان القتال ، ثم لا يغني عنهم هذا شيئاً ، فليس الشأن كله في النظام في الحرب ؛ إنما الشأن الكبير والتأثير البليغ للروح والمبدأ والغاية التي يقاتل لأجلها الجنود، وتمكنها من النفوس، وهي منبع القوة الخارقة للعادة ، ومبعث الشجاعة التي تبهر العقول، وسبب الفتوح العظيمة التي يندهش لها المؤرخون والفلاسفة .

مَنبَع القوّة الحقيقي عِندَ العَرَب المسْلِمين

وعن هذا المنبع نبحث في نفوس العرب الأولين

(١) يربطون الجماعة من جندهم بالسلاسل لئلا ينهزموا .

الذين خرجوا لفتح العالم ، وفتحوا نصف الأرض في نصف قرن .

منبع هذه القوة وسبب هذا الانقلاب العظيم الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ، أن العرب أصبحوا بفضل تعاليم محمد ﷺ أصحاب دين ورسالة ، فبُعثوا بعثاً جديداً ، وخُلقوا من جديد ، وانقلبوا في داخل أنفسهم فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت ، وانقلبوا غير ما كانوا . نظروا إلى العالم حولهم — وطالما رأوه في جاهليتهم بدهشة واستغراب — فإذا الفساد ضارب أطنابه ، وإذا الظلم مادٌّ رُوَاقه ، وإذا الظلام مخيم على العالم كله ، وكل شيء في غير محله ، فمقتوه وأبغضوه . ونظروا إلى الأمم وطوائف البشر حول جزيرتهم —

وطالما رأوها بتعظيم وإجلال ، وغبطة وإكبار — فإذا أنعام ودواب في صورة البشر : « يأكلونَ كما تأكلُ الأنعامُ والنارُ مَثْوىً لهم[1] » وإذا صورٌ ودُمىً قد كُسيت ملابس الانسان ، فاستهانوا بهم ، وبما هم فيه من ترف ونعيم ، وزخارف وزينة ، وقرأوا قول الله تعالى : « زَهْرَةَ الحياةِ الدنيا لنَفْتِنَهُمْ فيه »[2] — « فلا تُعْجِبْكَ أموالُهم وَلا أولادُهُم ، إنما يريدُ اللهُ ليعذبَهُمْ بها في الحياة الدنيا ، وتَزْهَقَ أنفُسُهُمْ وهُمْ كافرونَ »[3] .

وعلموا أن الله قد ابتعثهم ليخرجوا الناس من

---

(١) الآية ١٢ من سورة محمد ﷺ .

(٢) الآية ١٣١ من سورة طه .

(٣) الآية ٥٥ من سورة التوبة .

الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الاسلام ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم يطأوها ، واستخلفهم في الأرض ومكنهم فيها ، وقرأوا قول الله تعالى : « ولقد كتبنا في الزَّبورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصالحون »[1] وقوله : « وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما اسْتَخْلَفَ الذين من قبلهم ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وَلَيُبَدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أَمْناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً »[2]

وتعلقوا بقول نبيهم ﷺ :

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٥٥ من سورة النور .

« إن الله زَوَى[1] لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِّي لي منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض[2] » .

وقوله : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقُنَّ كنوزهما في سبيل الله[3] » .

وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر ، ووعدهم بالفتح ، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله ، واستهانوا بالقلة والكثرة ، واستخفّوا بالمخاوف والأخطار ،

(١) زوى لي الأرض : جمعها وقبضها .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) رواه الترمذي .

وذكروا قول الله تعالى : « إن ينصُرْكُمُ اللهُ فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصرْكم مِنْ بعده ، وعلى اللهِ فليتوكلِ المؤمنون»[1] . وقوله : « كم من فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين[2] » .

تفطّن العقلاء لسرّ قوةِ العربِ المسلمين

قول هرقل في هذا الأمر

وقد فطن بهذه الحقيقة بعض معاصري المسلمين وأعدائهم ، وأهل النظر والتمييز في ذلك العصر من الروم والفرس ، فمن ذلك ما روى ابن كثير أن هرقل

(١) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

لما انتهى إليه خبر زحف المسلمين قـــال لأهل الشام : « ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد وإنهم لا قِبَلَ لأحد بهم ، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحونهم على نصف خراج الشام ويبقى لكم جبال الروم ، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيقوا عليكم جبال الروم[1] » .

قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

أما عقيدة المسلمين أنهم مبعوثون إلى الأمم موكلون بإخراج الناس إلى عبادة الله وحده ، وأن الله متولي نصرهم ضامن بظفرهم ، فستلمحه وتلمسه في كل ما كان يصدر من المسلمين من كلام وفعال ، ومـــن ثقتهم وسكينة قلوبهم .

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٥) .

ومن ذلك ما روي أن الأمراء في اليرموك لما كتبوا إلى أبي بكر وعمر ، يعلمونهما بما وقع من الأمر العظيم ، وما يقابلونه من خطر داهم ، وعدد لا قبل لهم به ، كتب إليهم: أن اجتمعوا ، وكونوا جنداً واحداً ، والقَوا جنود المشركين ، فأنتم أنصار الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم عن قلة ، ولكن من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا منها[1] .

قول علي رضي الله عنه

ولما استشار عمر أصحابه في مسيره إلى العراق بوقعة نهاوند، قال له علي بن أبي طالب : « يا أمير المؤمنين إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ،

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٥) .

هـــو دينه الذي أظهر ، وجنده الذي أعزه وأمده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده وناصر جنده[1] » .

قول سعد وسلمان رضي الله عنهما

ولذلك كانوا يخاطرون بأنفسهم ويأتون بأعاجيب وأعمال خارقة للعادة ؛ ثقةً بنصر الله واعتماداً عـــلى موعوده ، حتى إنهم خاضوا بخيولهم في دجلة ، وكانوا يتحدثون مطمئنين كأنهم سائرون على البرّ ، وكان منظراً غريباً ،وجعل الفرس يقولون : « ديوان آمدند » ـــ يعنون الجن والعفاريت ـــ ويقولون : « ديوانه » « ديوانه » يعنون المجانين ، وكان الذي يساير سعد بن

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٠٧) .

أبي وقاص في الماء سلمان الفارسي ، فجعل سعد يقول: « حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنَّ الله وليه ، وليظهرنَّ الله دينه ، وليهزمنَّ الله عدوه ، إن لم يكن في الجيش بَغيٌ أوذنوب تغلب الحسنات» فقال له سلمان : « إن الاسلام جديد . ذُلِّلَتْ لهم ـ والله ـ البحور كما ذُلِّلَ لهم البرّ . أما والذي نفسُ سلمانَ بيده ليخرجُنَّ منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً » فخرجوا منه كما قال سلمان ، لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شيئاً[1] .

قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

بعثت هذه العقيدة والنفسية طمأنينة في أنفسهم ، وسكينة في قلوبهم ، وشجاعة خارقة للعادة ، واستهانة

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٦٥) .

بالعَدَد والعُدَد ، وعدم عبادة للمادة ، وعدم اتخــــاذ الأسباب أرباباً ، وعرفوا أنهم يقاتلون بقوة الدين ، ويظفرون ويغلبون ببركة الاسلام ، فكانوا شديدي الاحتفاظ ، كثيري الاعتداد بها ، يتمثل ذلك فيما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه . روى يونس عن ابن إسحاق : أن المسلمين بلغهم أن هرقل نزل بمآب في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة[1] - والمسلمون لا يزيدون على ثلاثة آلاف - فلما بلغ ذلك المسلمين ، أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ،

(١) المستعربة : العرب التي اعتنقت النصرانية .

قال : فشجَّع الناسَ عبد الله بن رَوَاحة ، وقال: « ياقوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعَدَدٍ ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور ، وإما شهادة » قال : فقال الناس قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة فمضى الناس[1] .

قول أبي عبيدة رضي الله عنه

كانوا واثقين بما وعدهم به رسولهم ـــ ﷺ ـــ عن الفتوح العظيمة ، فإذا رأوا من ذلك شيئاً قالوا : « هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه ، وصَدَقَ اللهُ ورسولُه ، وما زادَهُم إلا إيماناً وتَسْليماً[2] » .

---

(١) البداية والنهاية (ج ٤ ص ٢٤٣) .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب .

جاء رجل إلى أَبي عبيدة يوم اليرموك ، فقال : « إني قد تهيأت لأمري ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم تقرئه عني السلام ، وتقول : يا رسول الله ، إنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً[1] » .

قول خالد رضي الله عنه

وقد بلغوا في قلة الاهتمام بالعدد والاستخفاف بشأن العدو وكثرته ، حتى كأنهم من حديد والعدو من طين وَخزَف ، أُو كأنهم مناجل والعلوج[2] حقول ومزارع ، قد أينعت وحان حصادها .

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٢) .

(٢) العلج : الرجل الضخم القوي من كفار العجم وقد يطلق على الكافر عموماً .

قال المؤرخون : لما أُقبل خالد من العراق ، قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد : ما أكثر الروم وأَقل المسلمين ! فقال خالد : ويلك أَتخوفني بالروم ؟ إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددتُ أَن الأشقر[1] براء من توجيه[2] وأنهم أُضعفوا في العدد . وكان فرسه قد حفيَ واشتكى في مجيئه من العراق[3] .

(١) الأشقر : فرس خالد وكان قد رقت قدمه في مسيره من العراق إلى الشام .

(٢) توجّيه : وجى الفرس وتوجى : أصيب بالوجى وهو أن يشتكي الفرس باطن حافره .

(٣) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٩) .

قول ربعي بن عامر في مجلس يزدجرد

وقد ارتفع هؤلاء وعلت هممهم ، وكبرت نفوسهم، وعظم الدين والحقيقة والأخلاق في نظرهم، حتى صغرت الدنيا وزخارفها في عيونهم ، وهان أهلها عليهم ، فكانوا يرون إلى أبهة الملوك وفخفخة السلاطين ، وما فيه أغنياء هاتين المدنيتين ومترفوها من الأثاث والرياش ، وزخارف الدنيا ، كأنهم يرون إلى لعب الصبيان ، وكأنهم يرون الدمى والبنات المصنوعة من ورق أو قماش، ومواكبها وزينتها لا يهولهم شيء ولا يعظم في عينهم شيء .

أرسل سعد قبل القادسية رِبْعِيَّ بن عامرْ رسولاً إلى رستم — قائد الجيوش الفارسية وأميرهم — فدخل

عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق[1] المذهبة والزرابي[2] ، وأظهر اليواقيت واللآلي الثمينة والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل رِبْعِيٌّ بثياب صفيقة ،وسيف وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا

---

(١) النمارق : جمع نمرقة بضم النون والقاف وبكسرهما وهي الوسادة .

(٢) الزرابي : جمع زربية بضم الزاي وكسرها وفتحها وهي الطـِّنفِسَة أي السجادة .

وإلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له • فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ، فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتِها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله. قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي • فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : نعم كم أحب إليكم يوماً أو يومين؟ قال : لا ، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء

قومنا ، فقال : ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاثٍ ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، فقال: أسيِّدُهم أنت ؟ قال ، لا ، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال : هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل ؟! فقالوا : معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا ، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب يَستخِفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب[1] .

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٣٩ — ٤٠) .

المغيرة بن شعبة يجلس على سرير رستم

ودخل المغيرة بن شعبة على رستم وقعد معه على السرير فنَخَروا وصاحوا ، فقال : إن هذا لم يزدني رِفعةً ولم ينقص صاحبكم ، فقال رستم : صدق[1] .

أخلاق الصحابة وسيرتهم التي انتصروا بها

وكان من أكبر أنصار المسلمين أخلاقهم العالية وسيرتهم المَلَكِيَّة ، فكانوا يمتازون بها ويعرفون بها أينما رحلوا ونزلوا ، وكانت هذه الأخلاق طليعة جيوشهم ، تسخّر لهم القلوب والنفوس ، وتشرح لهم الصدور قبل أن تعمل سيوفهم ورماحهم ونبالهم، والذين كانوا يشهدونها ويجربونها ، كانوا يشهدون أن هؤلاء

---

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ٤٠) .

سيغلبون ويملكون الدنيا ، وأن الفرق بينهم وبين أقرانهم كالفرق بين البهائم والملائكة .

روى أحمد بن مروان المالكي في المجالسة بسنده عن أبي إسحاق ، قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فُوَاق ناقة[1] عند اللقاء ، فقال هرقل — وهو على أنطاكية لما قدمت مُنْهَزِمةُ الروم — : ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن ، قال : فما بالكم تنهزمون ؟ فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون

(١) فواق ناقة : مدة حلْبِها .

بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم . ومن أجل أنا نشرب الخمر ، ونزني ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ، ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضي الله ، ونفسد في الأرض . فقال : أنت صدقتني[1] .

وسأل هرقل هذا رجلاً كان قد أسر مع المسلمين ، فقال : أخبرني عن هؤلاء القوم ، فقال أخبرك كأنك تنظر إليهم : هم فرسان بالنهار ، ورهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلاّ بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه ، فقال : لئن كنت صدقتني ليَمْلِكُنَّ موضع قدميَّ هاتين .

(١) البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٥) .

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال : جئتك من عند رجال دقاق ، يركبون خيولاً عتاقاً ، أما الليل فرهبانٌ ، وأما النهار ففرسانٌ، يريشون النبل[1] ويبرونها، ويثقّفون القنا[2]، لو حدثت جليسك حديثاً ، ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر . قال فالتفت إلى أصحابه وقال : « أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به[3] » .

حبّبتهم هذه الأخلاق إلى أعدائهم الذين كانوا يقاتلونهم ، حتى إنْ كان هؤلاء ليؤثرونهم على بني

---

(١) يعملون لها ريشاً .

(٢) يقوّمونها .

(٣) البداية والنهاية (ج ٧ ص ١٦) .

جِلْدَتهم وأبناء مِلَّتهم ، ويتمنون لهم الظفر ، ويدفعون عنهم العدو ، ويتطوعون لمصالحهم .

قال البلاذري في فتوح البلدان : حدثني أبو حفص الدمشقي ، قال : حدثنا سعيد بن عبد العزيز ، قال : بلغني أنه لما جمع هِرَقْل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالُهم إليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لَوِلايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغَشْم ، ولندفعنَّ جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود ، فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص ، إلاّ أن نُغلب ونجهد ،

فأغلقوا الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد ، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين ، فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلِّسين ، فلعبوا وأدوا الخراج[1] .

مَاجَرىٰ لِلمُسلِمينَ حينَ نَسُوا دينَهُم

هذا ولما طال على المسلمين الأمد ، وقست قلوبهم ، ونَسُوا وتناسوا ما لأجله بعثهم الله على كثرة من الناس ،

(١) قلّس القوم : استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدف والغناء وأصناف اللهو .

وتوافر من أمم الأرض ، وهو قوله تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ، تأمرونَ بالمعروفِ،وتَنْهَونَ عَنِ المنكر، وتؤمنون بالله[1] » .

ونَسُوا ما لأجله خرجوا من جزيرتهم ، يُخرجون الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وصاروا يحكمون الناس حكم الناس على الناس، وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة ، حياة من لا يعرف نبياً ولا يؤمن برسالة ووحي ، ولا يرجو حساباً ، ولا يخشى معاداً ، وأشبهوا الأمم الجاهلية التي خرجوا يقاتلونها بالأمس ، عادوا فقلّدوها في مدنيتها واجتماعها،وسياستها وأخلاقها، ومناهج حياتها ، وفي كثير مما مقتها الله لأجله وخذلها .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

وأصبحوا لا همّ لهم ولا شغل ، إلاّ الأكل والشرب والتناسل ، وأصبحوا كرعايا الناس ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس ، وأشبهت ملوكهم وأمراؤهم جبابرتها وفراعنتها ، وأغنياؤهم مترفيها وأكابر مجرميها ، وكاد يسبق فجارهم فجارها ، تحاسدٌ وبغضاء ، ومنافسة في السلطان ، وتكالبٌ على حطام الدنيا ، وإخلادٌ إلى الترف والنعيم ، وإعراض عن الآخرة ، وسفك للدماء ، وهتك للأعراض ، وهضم للحقوق وغدر بالعهود والذمم ، وتعدٍ على حدود الله وإعانة للظالم ، وجَنَف[1] في الحكومات والمظالم ، وتبذير لأموال الله ، وعموم الفواحش والمنكرات ، وابتداع

(١) الجَنَف : الميل .

للجرائم، وإبداع في الخيانة، مما يحتاج بسطه إلى مجلدات، فهانوا إذاً على الله مع أسمائهم الاسلامية ، ورغم وجود الصالحين فيهم ، وظهور بعض الشعائر الدينية ، والواجبات الشرعية في بلادهم ، وهانوا على الناس رغم مملكتهم الواسعة وجيوشهم الكثيفة ، وخزائنهم العامرة ، ورغم تقدمهم في الحضارة ومظاهرها الكثيرة، فقلَّ إكرام الناس لهم وهيبتهم إياهم ، وتجاسروا عليهم .
قال « رتبيل » ملك رُخّج وسجستان ، لرسل يزيد بن عبد الملك وقد جاؤوا إليه يطالبونه بالخراج : « ما فعل قوم كانوا يأتونا : خِماص البطون ، سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ » قالوا : انقرضوا ، قال : « أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ، وإن كنتم أحسن

منهم وجوهاً » . ثم لم يعطِ أحداً من عمال بني أمية ، ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الإتاوة شيئاً[1] .

فإذا كان هذا في القرن الثاني فما ظنك بقرون بعده؟!

حتى إذا بلغ السيل الزُّبى ، وتضاعف كل ما ذكرنا ، وأفسد المسلمون في الأرض بعد إصلاحها ، بعث الله عليهم عباداً له أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار . سلط عليهم المغول والتتار ـــ أشقى الأمم وأخملها وأجهلها وأوحشها ـــ فوضعوا فيهم السيف ، وأجروا من دمائهم سيولاً وأنهاراً ، وأقاموا من رؤوسهم صروحاً وتلالاً ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وأحلّوهم الخوف ، فتمكن من قلوبهم الوهن والجبن ، حتى أصبحوا لا يصدقون بهزيمة

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٠١ طبع بريل .

التتر . قال ابن الأثير : سُمع عن بعض أكابرهم أنه قال: « من حدثك أن التتر انهزموا فلا تصدقه » قال: ووقع رعبهم في قلوب الناس ، حتى كان أحدهم إذا لقي جماعة ليقتلهم واحداً واحداً ، وهم دهشون ، ودخلت امرأة من التتر داراً وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنونها رجلاً ، ودخل واحد منهم درباً فيه مائة رجل ، فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده إليه بسوء ، ووضعت الذلة على الناس ، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلاً ولا كثيراً ، نعوذ بالله من الخذلان ، وحكي أن أحدهم أخذ رجلاً ولم يجد ما يقتله به فقال له: ضع رأسك على هذا الحجر ولا تبرح ! فوضع رأسه ، وبقي إلى أن أتى التتري بسيف وقتله ، قال ابن الأثير: وأمثال ذلك كثيرة .

وإليك ما قال ابن الأثير قبل أن يسرد وقائع هـذه النازلة :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هـــذه الحادثة ؛ استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نَعْيَ الاسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فيــا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ... هذا الفعل يتضمن ذكر الحـادثة العظمى والمصيبة الكبرى ، التي عقمت الأيام والليـالي عن مثلها ، عمّت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قـال قائل : إن أهل العالم منذ خلق الله تعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صـادقاً ، فـإن التواريخ لم تتضمن ما

يقاربها ولا ما يدانيها ... ولعل الخلق لا يرَون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلخ... »

ولكنْ مثل هذه الحادثة لم تستطع أن تنبه المسلمين، ولم يفيقوا من سكرتهم ، ولم يغيروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم ، وحق عليهم قول ربهم: « لَعَمْرُكَ إنهم لَفي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ[1] » وقوله : « فَلَوْلا إذْ جاءَهُمْ بأْسُنَا تَضَرَّعُوا ، ولكنْ قَسَتْ قلوبُهُمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ ما كانوا يَعْمَلون[2] » وقوله : « وَلَقَدْ أَخذْناهُمْ بالعذابِ فما اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وما يَتَضَرَّعونَ[3] » . وما

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٤٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون .

زالوا منهمكين فيما هم فيه من غفلة ولهو وظلم ، حتى يقول ابن الأثير :

« فـالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصراً من عنده ، فما نرى في ملوك الاسلام من له رغبة في الجهاد ولا في نصرة الدين ، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه ، وظلم رعيته ، وهذا أخوف عندي من العدو ، وقال الله تعالى : « واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الذينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً[1] » .

ومما يجب أن يلاحظ القارىء ويعتبر به المعتبر ، أن المسلمين في هذه الظلماء التي غشيتهم ، والفتنة التي عمّتهم ، كلما أفاقوا من سكرتهم ، وأصلحوا شأنهم ، وأزاحوا

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

العلل ، وصمدوا في وجه العدو ، واستنزلوا النصر ، هزموا التتر الذين لم يكونوا يعرفون الهزيمة ، ولا يصدق الناس بانهزامهم ، فقد هزمهم جلال الدين خوارزم شاه ثلاث مرات ، وهزمهم الظاهر بيبرس غير ما مرة، وهزمهم الملك الناصر صاحب مصر بمرج الصُّفَّر. وقال السيوطي عن وقعة عين جالوت : « فهُزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون ، ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولّوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يخطفونهم وينهبونهم[1] » .

حَال المُسلمين في القرون الأخيرة

لم يزدد المسلمون إلا ضعفاً ، ولم تزدد أخلاقهم على

---

(١) تاريخ الخلفاء .

مر الأيام إلا انحطاطاً وتدهوراً ،ولا أحوالهم وشؤونهم إلا فساداً ، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمة جوفاء ، لا روح فيها ولا دم ، وصاروا كصرح عظيم من خشب منخور قائم لا يزال يؤوي الناس ويهول من بعيد ، أو كدوحة قد تأكلت جذورها ،ونخر جذعها العظيم ولم تنقلع بعد ،وأصبحت بلادهم مالاً سائباً لا مانع له ، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس ، وطعمة لكل آكل ، وحق قول النبي صلى الله عليه وسلم :

« يوشكُ الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها ، فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ ، ولكنّكم غثاء

كغثاءِ السيلِ ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدور عدوكم المهابةَ منكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهْنَ ، فقال قائل : يارسول الله وما الوَهْنُ ؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت[1] » .

واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة ، حتى أغار عليهم في القرن الثامن عشر المسيحي الأمم الأوربية ، النصرانية الجاهليّة ، المتحضرة الوحشيّة ، الكاسية العارية[2] ، فسلموها مفاتيح ملكهم ، واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم .

---

(١) رواه أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه .

(٢) المطلع على تاريخ هذه الأمم وطبيعتها يصدق هذه الصفات المتناقضة .

وقد بلغ المسلمون من الانحطاط الخلقي ، منزلة أن وجد فيهم أفراد خانوا أمتهم ، وشرَوا[1] بلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ، وتطوّعوا في جنود العدو يفتحون بلادهم للأجنبي على حسابهم .

ولكن هذا الهجوم الغربي كان أشد تأثيراً، وأعمق أثراً ، وأبعد مدى ، من الهجوم الشرقي ــ المغولي والتتري ــ فكاد يُخمدُ كل جمرة في قلوبهم ، لم تخمدها العواصف طيلة هذه القرون ، وبقيت كامنة في الرماد تخبو مرة وتلتهب أُخرى .

ابتلاء المسلمين بالشك والذل النفسي

فتش عقلاؤهم[2] عن منابع القوة الكامنة في نفوس

---

(1) شرَوا : باعوا

(2) أي عقلاء الأعداء .

المسلمين وقلوبهم ، فوجدوا أن أكبر منبع للقوة والحياة هو « الإيمان » وشهدوا ما فعل الإيمان قديماً ، وما أظهر من معجزات وخوارق وما هو خليق بأن يفعل ، فعادَوه وسلطوا على المسلمين عدوين هما أفتك بهم وأضرّ لهم من المغول والتتار ، ومن الوباء الفاتك : الأول هو الشك وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه . والثاني ما نعبر عنه بالذل النفسي[1] وهو أن صار المسلمون يشعرون بالذلة والهوان في داخل أنفسهم ، وفي أعماق قلوبهم ، ويزدرون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق ، ويستحيون من

---

(١) وهو ما اعتاد الكتاب العصريون بتسميته « بمركب النقص » .

أنفسهم ، ويؤمنون بفضل الأوروبيين في كل شيء ، ويعتقدون فيهم كل خير ، ولا يكادون يعترفون بنقص وعيب في ناحية من نواحي الحياة ، ولا يصدقون بانهزامهم وفشلهم في ساعة من ساعات الدهر ، وإذا تمكن هذا الذل من نفوس أمة ، فقد ماتت وإن كنت تراها تغدو وتروح ، وتأكل وتعيش .

ابتلاء المسلمين بعبادة المادة وحب الدنيا

وابتلي المسلمون في هذه المرة بتأثير الحضارة الغربية ، والفلسفة الغربية ، بعبادة المادة وحب الدنيا ، والجري وراء النفع العاجل ، وتقديم المصالح الشخصية والمنافع المادية على المبادىء والأخلاق ؛ شأن الأمم الأوربية الجاهلية ، فكانت هذه الأخلاق وهذه النفسية

والتربية مانعاً من الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ،ومن تحمل المشاق ، وتجرع المرائر ، ومكابدة الأهوال ، والخسائر في سبيل المبدأ الصحيح ، والعقيدة السامية .

أسوأ جيل عرفه تاريخ الإسلام

كان نتيجة هذا كله أن ظهر جيل في المسلمين : متنور الذهن ، ولكن مظلم الروح . أجوف القلب . ضعيف اليقين . قليل الدين . قليل الصبر والجلَد . ضعيف الإرادة والخلق . يبيع دينه بدنياه ، وآجله بعاجله . ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية ، وبجاه وعزة وهمية . ضعيف الثقة بنفسه وأمته . عظيم الاتكال . كثير الاستناد إلى غيره : (وإذا رأيتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجسامُهُمْ

وإنْ يقولوا تَسْمَعْ لقولِهِمْ كأنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يحسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ"[1]) .

هؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوَهن ، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم إلى الاعتماد على غيرهم والتكفف لديهم والالتجاء في مواقع الخطر إليهم ، وأطفأوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله ، والحمية للدين ، وأبدلوها بالوطنية العليلة ، والقومية الناعسة ، وأبدلوا جنونها الذي بعث الحكمة من مرقدها ، وأطلق العقل من إساره ، والذي تمكن مما لم يتمكن منه العقل والعلم في آلاف من السنين ،

(١) الآية ٤ من سورة المنافقون .

أبدلوا هذا « المجنون » الحكيم بعقل ناقص عليل ، لا يعرف إلا الموانع والعراقيل.

وقد ظهر هذا التحول العظيم في العقيدة والنفسية ، والإفلاس في الروح والإيمان، في شر مظاهره في حرب فلسطين ، فكان فضيحة للعالم العربي في القرن الرابع عشر الهجري، كما كان انكسار المسلمين وفشلهم الذريع أمام الزحف التتاري فضيحة للعالم الاسلامي في القرن الثامن ، فقد اجتمعت سبع دول عربية لتحارب الصهيونية وتدافع عن وطن عربي إسلامي مقدّس، عن القبلة الأولى ، وعن المسجد الثالث الذي تشد إليه الرحال ، وعن جزيرة العرب والأقطار العربية التي أصبحت مهددة بالخطر الصهيوني، فكانت حرب فلسطين

دفاعاً عن حياة وشرف وعن دين وعقيدة ، وكان العالم العربي بأسره إزاء دويلة صغيرة لم تستقر بعد ، واتجهت الأنظار إلى مسرح فلسطين ، وانتظر الناس معركة مثل معركة اليرموك ، أو وقعة مثل وقعة حطين ، ولماذا لا ينتظرونها والأمة هي الأمة ، والعقيدة هي العقيدة ، مع زيادة فائقة في العَدَد والعُدَد . فلماذا لا ينتصر العرب وهم عالم ؟ ولماذا لا يقضون على عدوهم وهو حفنة من المشردين ؟!

ولكنَّهم نَسُوا ما فعلت الأيام وما فعلت التربية ، وما فعلت الدول والزعامة السياسية ، وما فعلت المادية بالأمة العربية في هذا العصر . لقد تقدم العرب إلى معركة اليرموك حقاً ، ولكن بغير الإيمان الذي تقدم

به أسلافهم إلى هذه المعركة في العصر الأول .

لقد تقدموا إلى وقعة كانت وقعة حاسمة كحطين — لو ظفر العرب — ولكنهم تقدموا بغير الروح التي تقدم بها صلاح الدين وجنده المؤمن المجاهد . تقدموا بقلوب خاوية تكره الموت وتحب الحياة ، وأهواء مشتتة ، وكلمة متفرقة ، يريدون أن يربحوا النصر ولا يخسروا شيئاً ، وأن يحافظوا على شرفهم ولا يخاطروا بشيء ؛ كل يعتقد أن غيره هو المسؤول عن الحرب ، وعن الغلبة والهزيمة . ثم هم يقاتلون وحبلهم في يد غيرهم ، إذا أرخى قليلاً تقدموا ، وإذا جره تأخروا ، وإذا قال : حارِبوا حارَبوا ، وإذا قيل : اصطلِحوا اصطلَحوا ، وما هكذا يكتسب الظفر ويقهر العدو .

أوْرَدها سعدٌ ، وسعدٌ مُشْتَمِلْ

ما هكذا ياسعدُ تورد الإبل

وبقي العالم متطلعاً إلى مـــا قرأه في تاريخ الجهاد الاسلامي من روائع الإيمان،وخوارق الشجاعةوالصبر، والاستهانة بالحيـــاة، والبسالة والبطولة ، والاستقبال للموت ، والتمني للشهـادة ، وحسن النظـام ، وروح الإطاعة والإيثار ، فـــلم ير من ذلك شيئاً ، إلا لمعات وإشراقات الإيمان كانت تظهر من بعض المتطوعـين في حرب فلسطين،والإخوان المجاهدين،تجنَّدوا وتطوعوا للحرب بدافع الإيمان، والدفاع عن الاسلام ، وحملتهم الحمية الدينية على المغامرة ، ودفعتهم إلى ميدان الحرب، فشرفوا الدين وارعبوا القلوب،وأعادوا التاريخ القديم

وبرهنوا على أن الإيمان لا يزال المنبع الفياض للقوة والنظام ، وأن عنده من القوة والنفوذ ، والتنظيم وروح المقاومة والجهاد ، ما ليس عند الدول الكبيرة المنظمة .

خاتمة

لقد ثبت مما ذكرناه في هذه الرسالة ، وما سردناه من الأمثلة والأخبار ، وشهادات التاريخ ومشاهدات هذا العصر — وما حرب فلسطين منا ببعيد — أن المدّ والجزر في تاريخ الاسلام وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الإيمان، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين، وأن منبع قوة هذه الأمة في باطنها ، وهو القلب والروح ، فإذا عُمّر القلب بالإيمان بالله ورسوله واليوم

الآخر ، وتزكت الروح بتعاليم الدين والأخلاق الاسلامية ، وجاش الصدر بالحمية الدينية جَيَشان المِرْجَل ، وأخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية ، وأعدوا للعدو ما استطاعوا، وأدركوا ما عليه العالم من جَوْر وظلم ، ومن جهالة وسفاهة ، وضلال في الدين والدنيا ، وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام ، والعالم قد عاد جاهلياً كما بدأ : « ظَهَرَ الفسادُ في البر والبحر بما كَسَبَتْ أَيْدِي الناس[1] » . فانعطفوا عليه ورأوا كأن العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم ، فسَعوا به يطفئون النار التي عمّت الدنيا ، ونَسُوا في سبيل ذلك لذاتهم ، وتكدر عيشهم ، وطار نومهم ،

---

(١) الآية ٤١ من سورة الروم .

وجن جنونهم، فعند ذلك، يتحولون قوة خارقة للعادة، لا يغلبها العــالم ؛ ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده، ودوله، ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا .

« ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لعبادِنا الْمرسَلين . إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورُونَ . وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالِبونَ[1] » .

« ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنـتم الأعْلَون إن كُنتم مؤمنينَ[2] » .



(١) الآيات ١٧١ — ١٧٣ من سورة الصافات .

(٢) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

فهرس

كلمة الناشـــر	٥
حال العرب قبل الاسلام	١٣
تغير حال العرب بالاسلام	٢٠
اللغز الذي أدهش المؤرخين	٢٥
نظرة تحليلية في هذا اللغز	٣٤
منبع القوة الحقيقي عند العرب المسلمين	٤٨
تفطن العقلاء لسر قوة العرب المسلمين	٥٣
ماجرى للمسلمين حين نسوا دينهم	٧١
حال المسلمين في القرون الأخيرة	٨٠
أسوأ جيل عرفه تاريخ الاسلام	٨٦
خاتمـــة	٩٢